عبد الفتاح كيليطو قارئاً التراث
قراءة في كتاب "الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي"
لعبد الفتاح كيليطو

الباحثة زهور العزوزي
جامعة محمد الخامس، الرباط
المغرب

مقدمة

يعتبر عبد الفتاح كيليطو من الكتاب والنقاد المتميزين في المشهد النقدي المغربي والعربي وحتى الغربي، كاتب ذو لسانين، الابن البار للمثاقفة، اسمه يدل على موسوعيته، بمعنى أنه يقرأ كل شيء. يعشق الغوص في التراث، ويبحر في كتاباته، جل أعماله التي تلقيناها كقراء تُبيِّن مدى تأثره بالثقافة العربية القديمة، فالحديث عن الكاتب والناقد والأديب عبد الفتاح كيليطو حديث ذو شجون، فهو القارئ النهم للنصوص الكلاسيكية والمتمرس في الكتابة باللغتين "العربية والفرنسية" والعاشق للسرد من خلال ركونه الدائم لمقامات الهمداني والحريري، والزمخشري والنفري. وكذا الأصفهاني والجرجاني والجاحظ، وأعاد الروح لألف ليلة وليلة بعدما أهملتها الثقافة العربية واعتبرتها كما وصفها أبو حيان التوحيدي ضرباً من ضروب الخيال، إلا أن كيليطو اعتبرها مجموعة من الحكايات، كل حكاية من حكاياتها تستحق أن تكون كتاباً أدبياً.

استندت قراءة عبد الفتاح كيليطو للتراث إلى مناهج نقدية غربية حديثة، مستفيدة من فلسفتها وآليات البلاغة العربية القديمة، نجد دراسته للتراث مبنيةً على ثنائية الفصلِ والوصلِ ومرتبطةً أساساً بتاريخنا وحضاراتنا، يقول:"نعكف على دراسة أنفسنا حين نعكف عن النص الكلاسيكي، والخطاب عن الماضي، هو في حد ذاته خطاب عن الحاضر"[1]

لنقل، إن عبد الفتاح كيليطو أعاد الاعتبار إلى التراث والسرد وانتشَله من النسيان والإهمال، وخير دليل على ذلك انفتاحه منذ بداية مساره التكويني الأكاديمي أي منذ تحضيره أطروحة الدكتوراه التي كانت بعنوان: (**السرد والأنساق الثقافية في مقامات الهمداني والحريري**). ليتأتى له نهج طريق السرد والسير فيه بتأني والغوصِ في قواعدهِ، ويقر بذلك بقوله: "لابد أن أقرأ كل يوم شيئا من السرد حتى أشعر أن الحياة بخير وبأن كل شيء من حولي على ما يرام هكذا بدأتُ وانطلقتُ إلى نصوص أكثرَ جَهَامةٍ". وسيسطع بريق هذا الطريق بأوَّل كتابٍ لهُ حَمَلَ عنوان **"الأدب والغرابة"** ضَّمنه فصلاً معنوناً ب: **"قواعد السرد"** حيث نجده غاص في هذه القواعد من خلال مجموعة من الحكايات.

والجدير بالذكر أن كيليطو "تغذى من فكر نقدي غربي وتشرب مقولاته التحليلية في مقاربة السرد بأنواعه المتعددة والمختلفة، فبدا دقيقاً في الإحاطة بالمفاهيمِ ونحتِ المصطلحات، حريصاً على أن يكون عمله نقلاً أميناً لا مُشوهاً لِمَا أَنْجَزَهُ الغربيون في هذا المجالِ، ساعياً إلى التأسيس والتأصيل دون تردٍ ولا وجلٍ"[2]، ويعتبر"واحداً من أذكياء قراء السرد العرب المعاصرين العاشقين له"[3] ومن النقاد والدارسين القلائل الذين اهتموا بقراءةِ التراثِ وفق مسلكٍ متكاملٍ، ونسقٍ منتظم، ومناهجَ نقدية مُضْمَرَةٍ تعود إلى البنيوية ونظرية التلقي، حيث إنه يتميز بذكاء يمزج بين اللذّة والمتعة الجمالية، ويتسم بسمات أساسية بين البساطة والسهل الممتنع، بين اللفظ والمعنى، والحكاية والأسطورة. والقديم والحديث. نجده ينهل ويتكئ على الثنائيات أثناء الكتابةِ، وهنا نستحضر على سبيل المثال

كتبه: "**العين والإبرة**" "**الكتابة والتناسخ**" "**الحكاية والتأويل**" هذا الأخير يستوقفنا مثنه لنبيّن من خلاله ما أشرنا له سلفا وهو العودة إلى الحكايات التراثية ودراستها دراسة عميقة.

- **الدراسة**

يتألف كتاب "**الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي**" من (88ص) يضم ست دراسات مقتبسة من التراث السردي العربي:

- ✓ **الجرجاني والقصة الأصلية**
- ✓ **الصياد والعفريت**
- ✓ **زعموا أنَّ**
- ✓ **أبو العبد والسمكة**
- ✓ **أبو الجهل والجمل**
- ✓ **ابن خلدون والمرآة**

أول ما استهل به الكاتب في هذا الكتيّب كما يصفه، وهو الركود الذي يعاني منه السرد العربي الكلاسيكي سيما في الوسط العربي، والضيم الذي لحق به، يقول: "لا أحد اهتم بتتبع مراحله وإبراز أساليبه، بل من المرجح أنه لم يخطر لباحث ببال أن يكتب تاريخاً للسّرد"[4] من هنا غاص كيليطو في جل النصوص السردية الكلاسيكية العربية، وهتك الحجاب ونفض الغبار، وقرأها قراءة حداثية تستند على أسس ومرجعيات غربية، واستطاع أن يضيء مناراتها المعتمة.

وأول ما بدأ به، عودته إلى الجرجاني وقراءته من جديد، لنقل، عبد الفتاح كيليطو قارئا الجرجاني.

1- الجرجاني والقصة الأصلية

قرأ عبد الفتاح كيليطو الجرجاني، انطلاقاً من تِبيان معالم القصة الأصلية التي أشار إليها في عنوان الدراسةِ، وتحديداً من كتابهِ (**أسرار البلاغة**) قراءةً بلاغيةً. حيث وجده يتكئ على ثلاثة خطابات: الخطاب البلاغي المقَنَّن لفنون المجاز، والخطاب المجازي الذي يتكون من استعارات وتشبيهات، والخطاب الشعري الذي يستند إلى أبيات شعرية مركبة، معزّزا ذلك بأمثلة تُحدد معالم هذا الاستشهاد، انطلاقا من أربعةِ أبياتٍ شعريةٍ لابن المعتز والتي وجدها تتكئ على ثنائيات الصباح والليل، وكذا أبيات لأبي العثمان الخالدي التي تزخر بالثنائيات من قبيل النور والظلام، الظاهر والباطن...

لقد وقف عند الجرجاني محللاً وفاحصاً لكلامه، فانتقد البعض منه، على اعتبار أنه أحياناً تعثر وتردد، وأحايين أخرى أطنب. وسلط الضوء على مجموعة من الصور التي شكلت له تساؤلات مضنية من قبيل: **كيف سأتناول كلام الجرجاني؟ هل سأقنع بسرد الصورة الواردة فيه؟** واستحضر مجموعة من الصور على سبيل المثال لا الحصر، صورة (الحجاب الذي يجب خَرْقُه) و(صورة عُرُوق الذهَب التي تُنَالَ بالحفر عنها). ليقف عند الأمثلة التي تناولها الجرجاني والتي تعود إلى نص كليلة ودمنة، وغيرها... ليبيِّن القصد من تأليف الجرجاني لأسرار البلاغة، يقول الجرجاني: "واعْلم أنَّ غَرضِي...أنْ أتَوصَّل إلى بيانِ أمْرِ المعَانِي كيف تتفق وتختلف ومنْ أينَ تجتمعُ وتفترقُ، وأُفصِّل أجْناسَهَا وأنواعهَا، وأتَتَبَّع خاصَّها ومشَاعَهَا، وأبيِّن أحْوالَهَا في كرمِ منصِبِهَا من العقلِ، وتمكُّنها في نِصَابه، وقُرب رحِمِهاَ منهُ، أو بُعدها حين تنسب عنه، وكوْنَهَا كالحليفِ الجارِي مجرَى النسَّب، أو الزَّنيم الملصَقِ بالقوم لا يقبلُونَه، ولا يمتعضُونَ لهُ ولا يذبونَ دونهُ..."[5].

انطلاقاً من هذا النص وقف الكاتب عند مستويين: الأول إلى ما يريد قوله، أي تأويل الكاتب إلى ما يطمح إليه الجرجاني، والثاني إلى ما قاله.

2- الصياد والعفريت

استلهم كيليطو حكاية "الصياد والعفريت" من ليالي "**ألف ليلة وليلة**"، وبيَّن فضاءها الزماني الذي يبدأ من الليلة الثالثة وينتهي في الليلة التاسعة، وارتباطها بالحكايات الأخرى، أي "أربع حكايات"، إلا أنه لم يضعها في سياقها التاريخي نظراً لعدم درايته بتاريخ إنشائها. فاكتفى بدراستها وفق سياق النصوص الكلاسيكية، فنقل بعض الفقرات، ولخص الأخرى، وأثناء قراءتنا كان يلح علينا طرح السؤال على عبد الفتاح كيليطو: **لماذا لم تقم بتلخيصها بدل نقلها؟** وبما أن الكاتب حريص على تبليغ الفحوى والمحتوى فإنه يضع القارئ نصب عينيه يقول: "فلا يعقل أن أقوم بتلخيص الحكايات لأن التلخيص يشتت القارئ، بالإضافة إلى كونه ليس بالعملية البريئة"[6] وفي موضع آخر "وألخص بعض الفقرات ...، على الرغم من شعوري **بمساوئ التلخيص**"[7].

ونحن نقرأ، نقف عند تأويلات وافتراضات كيليطو للحكاية، مع استحضاره للقارئ الذي شكل الحلقة الأساس في التحليل، فنجده يضعه أمامه، يُسايره ويُحاوره ويَجعله رفيقاً له، بقوله "سأتصور قارئاً ساذجاً يطلع على حكاية الصياد بغرض التسلية لا غير. هذا القارئ سيتحول رغم أنفه إلى مؤول"[8]

3- زعمُوا أنَّ

يجول بنا كيليطو بين كتابات السرد الكلاسيكي العربي، ليحطَ الرّحَالَ عند "**الفيلسوف بَيْدَبَا**" من خلال كتابه "**كليلة ودمنة**" بيَّن أولاً سبب تأليف "بيدبا" لهذا الكتاب الذي كان بأمر من "**ملك الهند دَبْشَلِيم**"، وفيه الكاتب سلط الضوء على المتلقي باعتباره مسهماً في إنجاز الكتاب، الحديث عن "الملك" الذي يقترح بداية لكل فصل والموضوع الذي يجب التطرق إليه.

ولقد استحضر كيليطو أمثلة عن البدايات الافتتاحية التي تعلن للمتلقي أن السرد قد بدأ، مثل "زعموا أنَّ كان بمكان..."[9] و"بلغني أن..."[10] و"كان يا مكان"[11] وعبارة "حدثنا عيسى بن هشام قال "الواردة على رأس كل مقامة من مقامات الهمداني"[12].

وفي إطار تحليل هذه الحكاية "زعموا أنّ"، يطرح كيليطو السؤال: **من هم أصحاب الزعم؟** وهنا يقدم عدة تأويلات واستشهادات من "ألف ليلة وليلة"، حيث إنها بدورها تحكي الحكاية كأنها ليست هي من تنسجها وتبدأ السرد ب: "بلغني أنَّ" ليقول كيليطو إن هذه العبارات تشير إلى الرواة الذين تناقلوا الحكايات.

واعتبر الكاتب أن السرد في حكاية "كليلة ودمنة"، أتى في إطار الحيلة التعليمية التي وضعت على لسان الحيوانات، حيث إنهم يخاطبون المتلقي العاقل والمتلقي السخيف. فالتعليم يحتكم إلى الحكمة وأحايين إلى الخفاء، وقدم في هذا الباب مثال: حكاية الحمامة المطوقة.

4- أبو العبر والسمكة

بدأ كيليطو هذه الدراسة بتقديم الشاعر "أبو العبر"، شاعر القرن الثالث، جمع معلومات عنه انطلاقاً من كتاب يعتبر من أمهات الكتب العربية القديمة، كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، بعدما اقتفى آثاره في الذاكرة الأدبية ولم يعثر عليه في ديوان "التواريخ الأدب العربي"، فأبو العبر جعل كيليطو، يقف عند قضية أساسية من قضايا الأدب، التي لم تحظ بالاهتمام وهي "الهزل"، يقول: "الدارسون يتطرقون إليه، لكن باعتباره أمرا غريباً أو وحشياً لا يستحق وقفة طويلة"[13]، في حين أن "القدماء، الهزل عندهم لم يكن ينفصل عن الجد ولم يكن يقل أهمية عنه"[14]، واستحوذت عليه أسئلة مقلقة من قبيل: **لماذا لا يُكتب تاريخ الهزل في الأدب العربي؟ لماذا يتركز الاهتمام على الجد؟**

من هنا، وقف عند شاعر شكل منعطفاً حاسماً في تاريخ الأدب العربي الكلاسيكي، شاعر تمرد على الجد إذْ "ترك الجد وعدَل إلى الحمق والشهرة به"[15]، فأبو العبر الذي خانته حداقته بعد الخمسين وقلَ نبوغه أمام أبي تمام والبحتري، اختار له طريقاً آخر، وهو طريق الهزل فغيَّر كنيته من أبي العباس إلى أبي العبر، وجعل التحول والتنقل والتغير رفيقه الدائم، حتى إنه طال شخصيته وشعره وحتى كنيته كل عام "يزيد فيها حرفا حتى مات"[16]، فانتقل من الجد إلى الهزل وانفصل عن حياته القديمة حتى عن أبيه.

لقد حلّل كيليطو مراحل الانتقال والعبور التي لحقت بالشاعر وانفصاله عن الجّد واتباعه طريق السخرية، أصبح يقمع ويُخجل الناس ويضحكهم في أبيه انطلاقاً من أجوبته الساخرة ووقاحته، وعلى سبيل المثال ما أدرجه الكاتب على لسان أبيه "فلما أن كان بعد أيام اجتاز بي ومعه سمكة، فقلت له: أيش تعمل بهذه؟ فردَّ على أبيه بجواب مشين، ترتبت عنه القطيعة النهائية"[17].

لقد قدم لنا الكاتب مجموعة من الأمثلة التي تبين هزل أبي العبر انطلاقا من مجاراته شاعرا يدين بالسخف والهزل الشاعر "أبو العنبس الصَّيمري".

5- أبو السهل والجمَل

وقف عبد الفتاح كيليطو وقفةً مثيرةً يطبعها الاستغراب والحيرة من خلال كتاب **"التّشوف لابن الزّيات"**، وترجمته لولي "أبو سهل القرشي"، ترجمةً لا تتعدى أربعة أبيات ناقصة، وليست لها نهاية، وغير ساردة للأحداث، وما أثار الكاتب في هذه الحكاية هو حديث الجمل مع أبي سَّهل، بعدما كان هذا الأخير يحمل على عاتقه مخلاته التي جعل فيها كُتُبَهُ. فخاطبه الجمل "اجعل مخلاتك

عليّ لتستريح من حملها"[18]، فاعتبر كيليطو أن هذه الميزة يمتاز بها الأنبياء فقط حين خاطب الهدهد النبي سليمان وسمع ما قالته النملة لباقي النمل.

هنا استحوذت على الكاتب الكثير من الأسئلة، وأنا كقارئة شعرت بهذا الاستحواذ والقلق المضني، فشاطرت الكاتب في ارتساماته، وهو يعلم أن المتلقي سيشاطره ذلك، حينما قال: لعل القارئ سيشاطرني ارتساماتي عندما سيطلع على نص. للأسف لم يجد الكاتب الأجوبة ولا أنا... أسئلة من قبيل: لماذا أتى إلى المغرب؟ لماذا قطع مسافة طويلة من المشرق إلى المغرب ولم يركب دابة من الدّواب؟ من قام برواية هذه الحكاية؟ من شاهد الحدث وأخبر به؟ ماذا حدث بعد أن كلّم الجمل أبا سهل؟ ماذا كان ردّ فعله؟

وبالتالي، فالنص يحتوي على الكثير من التأويلات من قبل الكاتب، والكثير من الأسئلة التي لم نجد لها جواباً ولم تشف لنا الغليل.

6-ابنُ خلدون والمرآة

يعدُ كيليطو قارئاً ابن خلدون من منظور السيرة الذاتية "أوالحديث عن الذات" هذا الأخيرة كان عنواناً لمقال للكاتب موسوم ب: **"الحديث عن الذات في كتاب التعريف لابن خلدون"**[19]، ليتخذ عنواناً آخر وتعديلا في متن هذا الكتيب **"ابن خلدون والمرآة"**، وانطلق من تعريف الأوتوبيوغرافياً، في سياق التعريف بابن خلدون والسير القديمة عامة، هذه الأخيرة التي لا يجب خلطها مع السير الحديثة.

وصفوة القول، لقد تميز الكتاب بقوة الهوامش حتى نكاد نعتبره دراسة مستقلة عن المتن لما يتضمنه من ملاحظات ومعلومات قيمة. حيث إن الكاتب يفصل بالشرح والتفسير في الكثير من النقط، وهذه ميزة ينفرد بها كيليطو بشهادة ثلة من النقاد والكتاب على رأسهم الناقد المغربي أحمد بوحسن بقوله: "تتميز كتاباته بقوة الهوامش"[20]، ويُعد كيليطو من النقاد والكتاب القلائل الذين يولون أهمية كبيرة للقارئ، فدائماً ما يستحضره في كتاباته، يحاوره، ويسائله، وأحايين أخرى يكون مقتنعاً بأنه يشاطره الرأي.

الهوامش:

[1].عبد الفتاح كيليطو، المقامات. السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، ط2، 2001. ص8

[1]. سليمة لوكام، تلقي السرديات في النقد المغاربي، دار سحر للنشر، تونس، 2009، ص 162.

[3]. عبد الرحمن بوعلي، التراث السردي والقراءة العاشقة عبد الفتاح كيليطو نموذجا، ضفاف، 2003.

[4] . عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، ط1، 1988، ص.ص6.5

[5]. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، نقلا عن عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، ص16.

[6] . عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل. دراسات في السرد العربي، م.س، ص 22.

[7] . نفسه، ص22

[8] . نفسه، ص24.

[9] .عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، م.س، ص34.

[10] . نفسه، ص34.

[11] . نفسه، ص34

[12] . نفسه، ص34.

[13] . عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، م.س، ص45 (بتصرف)

[14] . نفسه، ص45.

[15] . نفسه، ص46.

[16] . نفسه، ص46.

[17] .نفسه، ص49.

[18] . عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، م،س، ص60

[19]. عبد الفتاح كيليطو، (الحديث عن الذات في كتاب التعريف لابن خلدون)، مجلة الجدل، العدد5.6، 1987.

[20] .أحمد بوحسن، الغرابة الخلاقة في كتابات عبد الفتاح كيليطو، ضمن كتاب كيليطو والحوار النقدي العالمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 198، ص14